شذرة من سيرة سياسية: أقنعة لينين

عباس بيضون

عام ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ وهو عام حرب أهلية في لبنان، بدأت أولى مغامراتي السياسية. مغامرة حزينة مرتدّة. كنت في عامي الثالث عشر والعالم العربي بعد النزاع الناصري ـ الشيوعي بحر كراهية للشيوعيين، لم أجد وقتاً أنسب لعضوية الحزب الشيوعي، إقتنعت بمقالة صاحب، أسنّ مني، ضد المد العام، أخفيت إيماني فليست معاندتي للجمهور عن شجاعة، لكن صاحباً أفشى سري فنالني استفزاز وحصار وصفعة واحدة، هذا قليل بالقياس لما ناب رفاقاً جهروا بانتمائهم، أما نضالنا فكان جله في معاناة هذه البغضاء والالتقاء صباحاً عند خياط جعله السن والعناد قائداً للحزب في البلدة، لا ننسى الاجتماع الأسبوعي بالطبع الذي يتم بحذر وسرية، يتلاقى الرفاق منسلّين واحداً بعد الآخر ويلتئم العدد، ثم لا نجد بعد ذلك غرضاً للاجتماع.

تعبنا ونحن ننتظر أستاذ رياضيات وَعَدونا بأنه سيأتي لتثقيفنا، ومادة التثقيف هي للعجب تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي، لم يحضر الأستاذ ولا نحن صبرنا طويلاً على هذه البطالة الطقسية فانفرط الاجتماع وتفرّقنا، وتوقفت المغامرة هنا.

كان يمكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحد. ترجمات الآداب للأدب الوجودي ملكتني نقداً ثميناً للشيوعية استفدت منه كثيراً، تأخرت حتى علمت بترجمة «اللامنتمي». ففي المدن الصغيرة لا ضير إن لم تصل الأشياء في أوقاتها، حدثني عنه صديق لدى عودته من القاهرة، كما يتكلم عن إنجيل. قال إن

نفسه حلت في تفاحة وأنه يصل إلى أحوال غريبة كأن الكتاب سفر وتجربة أكثر منه نصاً. قرأت «اللامنتمي» تجرّعته بصبر وإرادة كما فعلت عند كأس البيرة الأولى، كان لا بد أن أعوّد نفسي على طعمه، والحقيقة أن يغدو لي هذا الطعم. أن أكوّن بصورة ما على شاكلة الكتاب، فألوي نفسي وأطرقها لتغدو مثله. اللامنتمي على كل حال أقرب إلى كتاب ديني، إنه يتكلم عن آثار الآخرين كما يتكلم التوراة والقرآن عن أخبار الأولين، ويسلك بين هيجل وبرنارد شو ونيجنسكي وراسبوتين ما لا ينسلك إلاّ في ذات الكتاب ودخيلته. لا أملك استعداداً للتصوف لكن قراءات كهذه يمكن أن تبعدني عن السياسة. فأنا قليل الفضول، كاره للكثرة والجمع، بطبعي، ناهيك عن حرجي الدائم، وهذه أمور كان لها أن تبعدني عن السياسة، لولا أنني لست الوحيد من لداتي الذي دعته أسباب كثيرة إلى أن يختار بالضبط ما لا يناسب طبعه، كأنه يقصد الخروج من نفسه ومن طبعه.

في انتظار حزيران

ليست مقدمات ٥ حزيران وحدها هي السبب، لكن ظرفاً داخلياً خارجياً (لا تفريق واضحاً فيه بينهما) يعطي لاختيار ثقلاً ومعقولية، ليظهر هو نفسه في ظرف آخر قليل الوزن ضئيل المعنى. لا أعرف متى بدا لي الطريق الشعري الصوفي السيريالي أضغاثاً شخصية، أو بدت هذه التجربة مجرد شهادة للمرء على نفسه، كان ثمة بالتأكيد هذا الظرف الذي جعلها بالتدريج مجرد كلام دليله فيه ولا سند له من تاريخ أو واقع. هل كان يمكن لشيعي تربى على تراث من التكفير الجماعي أن يسير طويلاً في الانفراد بصليبه، وهل أمكن لشيعي شهد ملحمة الاقتلاع والتردي أن يبتعد كثيراً في فكرة الخلاص الفردي، وأن لا يلح عليه وفي النهاية جرح الهوية، وأن لا تجتذبه وهو المنزوع عن جلده طوبى الوحدة المستقبلية، القومية أو الكونية، وفي النهاية هل لمثقف شيعي أن لا يجد في مسيرة الاضطهاد ومخيلة الاضطهاد الطويل دعوة، وأن لا تكون هذه الدعوة إعلاء بالاضطهاد الخاص والاقتلاع الخاص والجرح الخاص إلى آفاق عامة قومية وإنسانية، بل وإسقاطهما في لحظة على الفلسطيني والفيتنامي والجنوبي بدون توسطات؟

الشيعي هنا هو المثقف الشيعي المعزول عزلة عن جماعته والناس كافة، فلا عجب أن تضطرم نفسه بمخيلة انفصال عظيم وقطيعة عظيمة من ناحية، واتحاد أعظم من ناحية ثانية، وأن يتناسب عمق الانفصال مع بعد الاتحاد فيكون في اللا كاملة والطوبى الكونية أو القومية كاملة في آن واحد، ويكون طبعاً ضيّع أو أنسي في اللحظة نفسها كل

صفة خاصة أو واقع خاص أو ظرف خاص، وقد يكون نسيان الاسم والجلد والصفة والتاريخ الخاص شرطاً لبقاء ذلك كله متنامياً متعالياً متقداً خفية عن ذاته في الداخل.

لا أعرف متى عادت الماركسية أو الشيوعية خياراً غير منازع، لم يحصل هذا في ٥ حزيران، يخيل إليَّ أحياناً أن الأحداث هي التي تنتظر، أو أنها تحضر لتجد أسئلتها جاهزة، كان ثمة ماركسية حاضرة تقريباً لرعاية كل الأحلام المغدورة، ماركسية لا تعارض الفردية ولا المزاج، لا تعارض القومية الملتهبة ولا هوس الشعب، لا تعارض بطبيعة الحال الحداثة الغربية ولا أزياء التجديد. ماركسية ماوية تروتسكوية بنيوية نسوية رايخية. ماركسية بدون الماركسية مما هو غير ماركسي، والماركسيه السيريالية توحد وتدمج المتعارضات في حلم الثورة الواحدة، لقد كانت هنا الحداثة الغربية وأمبريالية النمر الورقي والحنين القومي والقطيعة الثقافية وروح النخبة وعبادة الشعب والثورة الجنسية وحرب الشعب والبؤرة الثورية والتسيير الذاتي والديموقراطية المركزية بدون نزاع.

ماركسية بلا ضفاف. هذه الخلطة هي «ماركسية» «لبنان الاشتراكي» الذي كان جانب كبير من مؤسسيه مثقفين ذوي ماضٍ في البعث الاشتراكي، الحزب الأثير للمثقفين الشيعة في الخمسينيات، والأرجح أن توقا لتأصيل لبناني وتأصيل اجتماعي عند هؤلاء لم يحل دون تجديد أشواق لعروبة جماهيرية، كنا كل شيء في الوقت ذاته في لبنان الاشتراكي الذي اتصلت به عام ١٩٦٦.

في صور أسسنا حلقة من عامل فرن وموظفين صغيرَين، وأنا أستعد للسفر إلى فرنسا، كان هناك من يأتي من بيروت إلى صور لرعاية الحلقة وفي الويك إند غالباً، والاجتماع جزء من هذا الويك إند. أعضاء الحلقة زمرة أصحاب في حال «اجتماع» دائم، ولا بد لاستثناء الاجتماع الحزبي والحرص على أن لا يغرق في الأوقات المديدة التي نمضيها معاً، من قدر من «اللعب». حضور المشرف «لم يكن له صفة مسماة»، يجعل من النهار كله استثنائياً، فضلاً عن الاجتماع كانت تنتظرنا مائدة سخية وكأس. يصل المشرف غالباً مصحوباً بزوجته وربما بزوجين آخرين من الرفاق فتعمر القعدة ويعمر الويك الإند ويغدو للاجتماع الطويل غالباً بهجة قداس الأحد.

أما موضوع الاجتماع فكتاب، وكتاب لا نشك أن منافسينا في الحزب الشيوعي لا يدرون باسمه. ١٨ برومير هو المفضل ومجرد الكلام عنه يجعل لنا درجات عليهم، أذكر أنني كنت أعرض «١٨ برومير» ذاته في اجتماع عندما علا شخير الرفيق عامل الفرن المكدود من عمل الليل.

سفري إلى فرنسا فرط الحلقة، وعندما رجعت بعد أشهر قليلة لم أفكر باستعادتها. لم يكن الاجتماع الضائع في ألويك إند مثالاً للجدية الحزبية، ثم إنني عدت مهموماً من فرنسا، كانت رحلتي إليها فشلاً واستغرقني الخجل من نفسي، كان حزيران بطريقة ما في أفقنا، وتعطلنا قليلاً في انتظاره.

٥ حزيران بعد أن جفت الدموع صار حفلة تطهير خرجنا منها أنقى وأهدأ بالاً. لم نتطهر نحن فحسب، ولكن تطهرت وطنيتنا التي عادت بلا شائبة ولا ماض تقريباً وأمكن تحريرها من تراث وإنشاء ثقيل. كأنها ولدت غداة ٥ حزيران، تطهرت عروبة ملتبسة بتركة كبيرة وباتت الآن «رافعة» للتقدم. تطهرت «جماهيرية» موصومة كثيراً، وباتت الآن ديانة فتية. كان ثمة ولادتنا وولادة أقطابنا الثانية غداة ٥ حزيران، ثم إن الخسارة نفسها تطهرت فقد عادت نبلا شخصياً وتكفيراً وعيداً للعودة وجمع الشمل. والتربية الشيعية، من جهة أخرى، قادرة على أن تزين ذلك، فلا بد من هذا المقلب التراجيدي للقمة الملحمية التي وضعنا عليها ٥ حزيران، التسليم التراجيدي جزء من تسليم المثقف بالاندماج في جماعة وحزب. لقد كانت فرديته ـ على الأقل في وهمه ـ هي القربان، ولا بد لتضحيته هذه أن تكون مسرحية، ومن الآن سيعلو ولو على نحو آخر غناء الاندماج في المسيرة والشعب.

كنت أفكر منذ اللحظة في «الفعل»، كان «لبنان الاشتراكي» بدوره يبحث أيضاً عن «الفعل».

انتميت لحركة القوميين العرب قبيل تخليها عن هذا الاسم وتحولها إلى «منظمة الاشتراكيين اللبنانيين»، لم أكترث للاسم. لم يكن في التنظيم الذي تأسس بعيد سقوط فلسطين ما يمكن اعتباره باقياً. ما سبق وقدم غدا رميماً، في اللحظة ذاتها التي توارى فيها الماضي كله ووقع الشقاق الذي لن يلتئم بين اليوم والأمس. نعم بقيت للتنظيم القديم «ماركة» الفعل. وحده هو الذي نرثه من الماضي. التنظيم مستودع للفعل. الشعب مستودع الفعل. نرث أرضاً من الفعل وعلينا أيضاً أن نعرف كيف نطهّرها.

انتسبت إلى حركة القوميين العرب بعيد الانتخابات، التي لم يعرفها من قبل تنظيم له هذا النسق الحديدي. كنت في الرابعة والعشرين ولي قراءات فوضعت في مرتبة وسطى، استعديت بالفعل لدخول التنظيم بقراءة كاملة لمختارات لينين وماو. دخلت بسلاحي كله، وفي الحلقة لفتُّ المسؤول بقراءاتي فأبلغ قيادة التنظيم، كنت جديداً لا أعرف حتى أسماء أعضاء المرتبة الأعلى ولا دراية لي بعلاقاتهم وهي بالطبع علاقات نشأت في غضون طويلة ولعبت فيها الخلافات والمنافسات والتكتلات. أما «الفعل» فبقي

فقط ماركة. ليس سوى اسم التنظيم الذي ربّاه عبر ربع قرن. اسم قديم لكنه يزن بالقياس للأسماء الجديدة. عدا ذلك لم يرث شيئاً فعلياً، فقط حزمة العلاقات الشخصية. وإذا كان له تراث ملحوظ فهو تراث الاهتراء البطيء الذي جعله خاوياً. لم ألاحظ في البداية. انشغلت بالاستشهاد بلينين وماو في الاجتماعات، إلى أن فاجأني المسؤول بالقول إنهم اختاروني عضواً في «قيادة الإقليم»: الاسم المتبقي من حركة القوميين العرب لقيادة لبنان التنظيمية.

أقنعة لينين

في البدء ظننت أنني اخترت لاجتماع واحد. ولم أعرف أنني بتُّ في مرتبة. لعب في ذلك جهلي بنظام الحركة، لم يزدني الاجتماع علماً. خُيّل إلي أنني في لجنة ثقافية فقيادة الإقليم لم تكن سوى ذلك، مجرد لجنة قراءة: الأيديولوجيا الألمانية، ١٨ برومير، نقد الاقتصاد السياسي، كتاب بعد كتاب والقراءة مقدرة يتفاوت فيها المجتمعون. إنهم قادة مناطقهم، لكنهم هنا ليؤدوا امتحاناً آخر، امتحان قراءة. أبلى البعض في التنظيم شبابهم، كذلك الذي سبق له أن تقدم للانتخابات غير مرة باسم التنظيم، ولم يفكر أنه سيضطر بعد ذلك إلى درس قراءة لن ينجح فيه. كان هناك ببساطة المثقفون وغير المثقفين فليس درس القراءة بريئاً. كان امتحاناً صعباً وأداة فرز، وببساطة، وسيلة ملتوية لإعادة خلط الأوراق وتغيير المواقع وتضييع الكثيرين. لم يكن بريئاً في سره ولا في علنه. كان واضحاً أن فلاناً سيقصّر بل سيغيب في يوم قراءته، أي أنه غاب أم قصّر سيتعرّض لتشهير خفي، وتتناوله النظرات المتواطئة والغمزات واللمزات، وهو جالس لا يحير فهما. كان الصراع عنيفاً ولو بأدوات أخرى. أدوات لها من يملكها ويملك استخدامها ومن تجعله في حيرة كاملة، لعبة أدارها بدراية الأمين العام الذي يحسن أن يكتل ويتواطأ بنظراته وحدها، لنقل أن X من الذين اتفق على أن بينه وبين قراءة ماركس بونا يتكلم. لا بد أن كلامه أجوف ما دام لا يؤسسه على الكتب المرجوة، وإذا تكلم ستحدق به نظرات الإشفاق والزراية والاستهجان التي يستثيرها الأمين العام بعينيه وبسمته الخفيفة. يسقط تحت هذه النظرات بدراية أو بلا دراية منه، إنه الآن منبوذ دون أن يدري. هذه هي المؤامرة والذبح على البارد، بل هو الانشقاق الصامت. يشعر X بما يجري فالنظرات لا تلبث أن تغدو أكثر جرأة، بل سرعان ما تستفز اللسان فيسيل بما يخامر النفس، يشعر فيغضب ويعود إلى مدينته يستمسك برفاقه القدامى فيتراصّ هؤلاء حوله. لقد ظهر التخلف برأسه الواضح، وحان الوقت لأن يذهب رفيق متشدد ليرعى الاجتماع،

وفي الاجتماع لا يمانع من أن يقول لـ X إنه لا يفهم التحول الجديد وخير له أن يخرج. يفضل X الذي هو أيضاً زعيم صغير ولا طاقة له على أن يبدأ من صف التهجئة أن يخرج ليعتصم بشلته في ناد أو حي، أما الرفيق المتشدد فيباهي بأنه قدر على أن يخرجه ويستحق التهنئة، اللعبة الآن هي التطهير الداخلي، لا بد للتنظيم أن يتطهر من فلان وفلان ليحق له أن يبدأ من جديد، وليكون فلان وفلان أبناء اليوم.

كان لي أنا أيضاً «فصلي» الصغير، كان لـ ك (لنسمّه ك) من الحساسية ما حماه من امتحان القراءة، فقد أرسلني مكانه إلى قيادة الإقليم. لم يعترض ك ولا اعترض X الذي ذكرته لتوّي على الماركسية، تربوا بالتأكيد على العداء للشيوعية، لكن هذه قصة قديمة ثم إن هذه جريرة المعلمين الذين لم يترددوا حين واتت اللحظة في أن يقفزوا تماماً إلى الناحية الأخرى، لم يعترض ك ولم يفهم لماذا جعلته هذه الماركسية الشبح، دون أن يدري وخفية عنه، من خدام الماضي، فيما وهب بعض مجايليه ورفقائه المزمنين حق الولادة الثانية. كان هناك كرسي للتخلف وعليه أن يجلس عليه لتتم اللعبة، لم توجد محكات ولا مجابهات، لكن مكانه في الترسيمة الجديدة ملزم وعليه أن يقبله أو يخرج، وعلى كل حال فللرجل اعتداده ولا يناسبه أن يعود للصفوف الإعدادية كما فعل مثلاً ح (لنسمّه ح) الذي جاءني ليقول لي إنه يعلم أنه متخلف ويريد أن يكون في حلقة تثقيفية.

لم يكن ك سهلاً. حين شعر بالحصار اختار المواجهة. لم يكن التصدي للناصرية خرج إلى العلن بعد. لكن نعت النظام الناصري بالبرجوازي الصغير بات مألوفاً في أدبياته. غضب ك وغضبه مشهور. قرر أن ينذر التنظيم. اختار مناسبة ناصرية ودعا إلى احتفال جماهيري. مع ذلك لم يغضب ك للناصرية. وجدها مناسبة لينذر التنظيم، ليقف في موازاته، ليفهمه أنه قادر على احتفال، ليعلن عصياناً صغيراً جرت العادة أن يختم بصلح، لكن الأمر فهم على نحو مختلف، لقد أطل الخصم برأسه وتسمى. إنها ناصرية التنظيم هي التي تنتفض. ذلك رائع، كرسي ووجد من يملؤه. كرسي الناصرية البائدة، كرسي الماضي. المواجهة الآن واضحة. لتكن بين مواقع تاريخية، بين التقدم والتخلف، بين البرجوازية الصغيرة والبروليتاريا، بين الثورة والإصلاح. «اللينينية» واضحة بهذا الشأن واللعبة لا تتم على نحو آخر. هكذا يمكن أن نفكر، حين تختار حلقة صغيرة من الناس أن ترى نفسها على أنها التاريخ.

بعد احتفال ك بالناصرية، بدا أنه ليس الخطأ الأخير. لم يكن درياً ببسيكولوجية الشبان. الطلاب وقفوا معي. كنت من «أهل الكتاب» الماركسي «ومن القراء». علم محفوظ، وصاحبه يسطو باسمه (العلم) وباسمه يحل ويحرّم ويتهم ويحكم دون أن

يرد ذلك إلى غرض، ولا تحول عندئذ تلك السلطة التي يجمعها المرء في يده دون أن يلام عليها أو يتهم بها. المركز والعراقة سلطة صامتة، أما الكلام فسلطة جارية وراهنة بهذا المعنى، ولاء الكبار في السن للمركز أكثر، فهؤلاء بالطبع أبناء مجتمع وللتراتب الاجتماعي عندهم سلطة راهنة وجارية وحاضرة باستمرار.

دعينا أخيراً إلى مؤتمر، انتظر الأمين العام غالباً حتى أتى الوقت. ك اختار الأعضاء واختار ـ للعجب ـ أكثرهم من غير صفه، نظر فقط إلى فعاليتهم بدون أن يقدم أي صفة أخرى. هل كان غير دار بما يجري من شهور في بيتي، لقاء كل مساء، ليس لفتيان الحركة وحدهم، ولكن ليساروبي البلدة (بعثيين وماويين). لم يكن ذلك سراً وما من دعوة خاصة، ما كان أسهل عليه أن يفرز من له ومن عليه لو أراد، لو انتبه، غريب أنه لم يحاول، لم يكن في باله إذن أنه في معركة، هل هو اعتداده المعروف أم أنها مجرد غفلة. الأرجح أنه لم يحسب سوى لاجتماع عادي، إنه عصيان صغير ومن العادة أن يترضّاه الأمين العام وينتهي الأمر.

في المؤتمر تقمصت كما يجدر بقارىء، ليس سوى قارىء، أن يفعل، أقوالاً ومواقف للينين في الأغلب. كنا في مؤتمر «وما العمل» الشهير أيضاً على مؤتمر، وبلغة لينين أستطيع الآن أن ارسم الفوارق، وأسمي المواقف وأكشف حقيقتها، كان أمامي المانشفيك والبوند وكان عليّ أن أدفع الأمور أمامي لتطابق هذه التسميات وتلك المواقف. مسرح ضمني بالطبع كنت كل شيء فيه دون أن يخطر لي أنه لعبة. ربما لذلك راع الحاضرين أن يجدوا شخصاً ليناً مثلي يطلق نعت «انتهازي» على كل من يناقشه. لم تكن الكلمة كبيرة في فم لينين، وكان يرشق بها المانشفيك والبوند فيتلقونها دون حرج (أو هكذا خمنت)، إنتظرت من ك أيضاً أن يتلقاها من فمي اللينيني دون حرج أيضاً، وحين وجدته متعجباً من أن يجدني أخاطبه هكذا ولا يفهم إلا أنني أطاله في سمعته، اعتذرت قائلاً «إن هذا تقليداً للينين». لا عيب أن ألعب «لينين» وأن ألعب مارتوف وتروتسكي وبليخانوف أيضاً، دار النقاش كما يجب، بين البورجوازي الصغير والبروليتاري والإصلاحي والثوري والمانشفيك والبولشفيك وكان بوسعه أن يتقمص ما شئت، وفي النهاية ضاق (ك) بالنقاش فاستقال وهذه أيضاً عادته، ومن المعتاد أن يلحقه الأمين العام فيترضّاه ويعيده. لكن كلمة الاستقالة في نقاش أبطاله لينين وخصومه، هي غيرها في الأمس. لقد حسمت مواقف بحالها. انتصر البولشفيك وما كان ممكناً أن يبيعوا انتصارهم بالمرضاة. هُزم المانشفيك. هُزم الاشتراكيون الثوريون. هُزم كبرنسكي، لم يقل أحد لـ (ك) عد. لم يعد (ك) غير أنه لم يقتنع أن هذا مصير

الانتهازية البرجوازية الصغيرة، رأى عن حق أن هذه أمور ليست محكاتها في عدد الكتب أو المعرفة الكتبية.

ذهب قدامى الأعضاء (وبينهم بالطبع عمال وفلاحون) مع ك وبقيت وحدي مع مجموعة أكثرها من الطلاب، لم نصحُ بسرعة من أننا صنعنا «ما العمل» الصغيرة التي لنا، لم يكن حان الوقت لنسأل عن كيفية الممارسة البروليتارية، ربما صح لنا أن ضبط الاجتماعات ومواعيدها صفة بروليتارية. قراءة «ما العمل» وسواه في الاجتماعات بالطبع صفة بروليتارية ثانية، وهذا يكفي الآن. استقل (ك) بمجموعة من التنظيم ورضي به الحزب الشيوعي الذي بدأ يعاني من مجادلتنا حليفاً له، وطرح الفيتو علينا فأخرجنا من لقاءات الأحزاب، لكننا لم نعانِ من ذلك، كان هذا بالتأكيد شهادة لنا، وعلى كل حال، كان يكفينا أن نقرأ وحدنا «ما العمل» وأن نعرف وحدنا أسراراً على هذه الشاكلة لا يدري بها أحد. كنا في غير دنيا، بدأ يتكوّن نموذج المثقف المباهي المزدري المكتفي بوحدته دليلاً على سلامة خطته.

كنا في ١٩٦٨، في مدينة جنوبية صغيرة (صور)، لا نزال نعيش في ظل حالة الطوارىء التي لم ترفع عن الجنوب. في قدرة السلطة أن تستبد بمنطقة مكسورة الشوكة، في وسع الثكنة أن تستبد بالسلطة كلها في هذا المكان، فهنا حيث يسود سلم لا نجده في مناطق أخرى، كان العنف دائماً بالمرصاد. عنف السلطة، عنف الجوار، عنف الفلسطينيين المكبوت أو المعلن، عنف العدو. ومع العنف بالطبع إغراءات العنف، كان السلاح في ١٩٦٨ يتسرّب إلى المخيمات من قبل «فتح»، والسلطة تحاول أن تحتوي وضعاً يتسع خرقه ويهدد بأن ينفرط، تشتد أحياناً لكنها لا تستطيع أن تمسك وضعاً زاد تراخيه. وسّع هذا على الأحزاب من حيث الدعاوة والتعبئة، لكن كان عليها أن تحسب كثيراً لكل خطوة عملية، كنا في ١٩٦٨ لكن ٢٣ نيسان ١٩٦٩ ينتظر.

١٩٦٩ نزلت مجموعة كوماندوس إسرائيلي في مطار بيروت وأحرقت عدداً من الطائرات المدنية على الأرض ورجعت، هذه حادثة غريبة، استخفاف إلى حد السخرية من السلطة اللبنانية، وليس أكيداً أنه يدعمها في سعيها لسد المنافذ على الفدائيين الفلسطينيين، لا أعرف كيف يقدر الإسرائيليون اليوم هذه الخطوة، لكنها بالتأكيد جعلت السلطة اللبنانية أياماً في حال فراغ حقيقي. تلقى اليساريون الذين هم أكثر من غيرهم حساسية تجاه فراغ السلطة الإشارة، انتهزوها بمنشور يطرح لأول مرة موضوع السيطرة العسكرية على السلطة.

سؤال المنشور ما هي وظيفة الجيش، الدفاع عن الأرض أم الاستبداد بالسلطة.

والجواب كالعادة شطح غريب: حل الجيش وتوزيع السلاح على الشعب، وقعنا المنشور مع عدد من التنظيمات اليساروية وكان علينا أن نوزعه في ليلة وساعة واحدة. كان هذا أول تحدّ علني للسلطة العسكرية المموّهة.

لم أكن معروفاً حين انتميت إلى التنظيم فحياتي الصغيرة لا تتصل بالشارع وأسرتي طارئة بلا عائلة وأحسب أن الرفيق (ع) بذل جهداً كبيراً لإقناع أهل السوق بأني حقاً مسؤوله السياسي. رغم ذلك بقي الخبر محصوراً ولا أعرف إذا كان بلغ المخابرات العسكرية، وحين جاء الجنديان من الشرطة العسكرية لأخذي كنت مستعداً، جاكيت سميكة وتمارين رياضة في الصباح لتقوية الجسد. لا أعرف ماذا فكّرا حين وجداني في انتظارهما، لم يكن لهما ذرة أمل في إيجادي. لذا لم يحضرا في سيارة عسكرية واضطرا لحملي إلى الثكنة في سيارة لأحد المخبرين.

لماذا لم أصمد

كنا نظّمنا التوزيع على أن يتم كله في أقصر وقت، كل يوزع في منطقة حول بيته ويقفل عائداً إليه في دقائق، فعلنا ذلك بنجاح. لم أصادف أحداً وأنا أوزع، سوى واحد كان بدوره يوزع، لماذا أقول يوزع، كان يرش المناشير في الشارع الخالي ومن فوق حيطان المنازل وفي مداخلها، في الصباح سبقنا المخبرون إلى جمعها، القليلون عثروا على واحد لم يُلمّ. علمنا أنهم أمسكوا «خ» كنت أرسلته عن إهمال مني وخفّة تحضرني دائماً إلى بيروت ليحضر المنشورات، أعطيته ٥ ليرات فذهب إلى مبنى جريدة التنظيم وتسلم المنشورات ملفوفة بالورق، حملها وصعد إلى سرفيس وجعلها على ركبته، ولم يخطىء، مخبر شاركه المشوار الظن، ففي الصباح حينما اعتقلوه وجدوا في جيبه منشوراً وتقارير عن «ما العمل» العزيز.

جاؤوا لاصطحابي أول مرة فلم يجدوني، حضر واحد من التنظيم لينصحني بترك المدينة والذهاب إلى بيروت، لم أستجب. علمت أنني لا أستطيع أن أنجو فعلاً فانتظرتهم وسلمت نفسي. اليوم لا أعرف حقاً لماذا فعلت ذلك، بررت ذلك حينها بأنني لا أستطيع أن أنجو بنفسي. وأترك واحداً كـ (خ) يبلغ الخامسة عشرة في السجن، كنا بعد ترك (ك) ولغطه موضوع سؤال (ك) وأنصاره قالوا: إننا زمرة مدّعين وساعة الامتحان نفر كالأرنب. افترضت أنني في فراري سأكون هذا الأرنب. هل كان هذا حقاً السبب. لست الآن متأكداً. كنت علمت أن غير واحد أُخذ إلى الثكنة وعُرّض للضرب وحين لم يعترف أطلقوه، هل حسبت أن الأمر لن يعدو «قتلة» وأعود إلى بيتي ظافراً، أم أنني حين علمت

بتوقيف (ج) يئست من أي إمكانية للفرار، خاصة وأن الطريق إلى بيروت تمر عبر حاجز عسكري على جسر. وهل جعلني الخوف وحده أجمد في مكاني ولا أحير ساكناً وانتظر لحظة الانقضاض عليَّ كما يفعل حيوان أفقده الذعر صوابه. في «نظارة الثكنة»، أعطوني سيكارة فعدت فوراً إلى التدخين وكنت هجرته من سنين. قالوا لي إن ج اعترف أنني أعطيته مالاً ليذهب إلى بيروت ويأتي بالمنشورات فأنكرت. قال الأجيدان شيف المحقق، احترمناك ويبدو عليك أنك لا تحترم نفسك. إخلع جواربك خلعت، ورفعت قدميّ على حامل حديدي على قاعدتين متقابلتين. وضعتا في فجوتين، وأطبق عليهما بما يشبه القيد. طرحتُ أرضاً أنظر إلى الجندي ينهال بالكرباج على باطن قدمي، هذا هو الفلق وكنت من قبل استخفّ به. أحسب باطن القدم أقل رقة من راحة اليد وأسمك جلداً، وأنها هكذا تستحمل من الألم ما لا تستحمله اليد. كنت أعتمد على هذا الاحتمال للألم، طاش توقعي فالضرب على باطن الرجل يؤلم كما لا يؤلم شيء آخر. من الضربة الأولى أحسست أن الضربة تصعد إلى قلبي ورأسي. ولا قبل لي باحتمالها واعياً، قلت في نفسي لأحتمل ضربة أخرى، عددت: واحد اثنين، ثلاثة، وقبل أن أُعيا رفعوا الضرب عن قدمي، وكنت أقول هي ضربة وأعترف، الغريب أنهم كانوا دائماً يرفعون الضرب وأنا على لحظة من الاعتراف.

بعد الفلق كل شيء كان أكثر احتمالاً، أحصي الفروج، الضرب على الأذنين وفي العمود الفقري، ما لم أحتمله أيضاً الضرب بالكرباج على باطن اليد، يبدأ محتملاً ثم يغدو أشبه بحزّ اليد وتشقيقها، صمدت ليلة وأُخذت إلى السجن فنمت كوم لحم وعظام وتعب ورضوض، لا أقول نمت لكن الرضوض والإعياء كانا في عقلي أيضاً. لم يتعد إحساسي أوجاعي النائمة التي غدت ثقيلة إلى حد جعل جسدي وألمي ثقلاً خالصاً، إلى حد طرحني أرضاً، لم أشعر بقساوة البلاط ولا ببرودة الهواء. كان جسدي مرمياً ككرة من لحم على الإسمنت ولا قدرة لي على جمعه فالوجع يبدو وكأنه عضل وعظم إضافيان إلى الرأس ويخرج إلى أبعد من أطرافي، في الصباح أخذوني ثانية للضرب. الآن لا أذكر ماذا فعلوا في المرة الثانية، لقد ضربوا على الرضوض والأوجاع نفسها كما لو كانوا يضربون في جثة. لم أعترف، هل أعطيت ٥ ليرات وأرسلته. لا، بماذا إذن اعترف ضدك، لا أدري، هل تعرف الأمين العام، أعرفه، أين، قابلته في ندوة... أحضروا الكهرباء، كان ذلك للتهويل. وضعوا شريطاً حول إبهاميّ وأرسلوا تياراً خفيفاً إلى حد أنه دغدغني. هل جئنا لنضحك يا ابن... سأصعد عليك، أنت حماري، لم أهتم بالطبع، ربما فكرت مجدداً في تأثير الكنايات والصور على إحساسنا بالعالم.

كنت متروكاً على مصطبة زنزانتي الضيقة في حال يأس كلي. لم أملك في يوم أملاً كافياً لاحتمال كل هذه العزلة، جسدي تحت رحمتهم، مملوك لهم، ونفسي في الثقب ذاته، لا تستطيع أن تحلق أبعد من الجسد المهان، جاء أبي بوساطة من السيد موسى الصدر وسألني ماذا تريد، سمحوا له أن يبقى لحظة معي. قلت أريد تبغاً، كان كعادته صابراً وأنا لم أجد دموعاً.

رغبات التبوّل أكثر من العادة كأنما هي فقط لتذكرنا أننا أيضاً محبوسون في أجسادنا وتستحكم فينا كثقب في داخلنا، أو نوع من قلق عضوي، من دفاعات غامضة، حديد الزنزانة الأخرس، خطوات الجار في الزنزانة التالية، العسكري. هذا العالم الأخرس اللامبالي الذي يبدو فجأة كطوق إهانة وأذى بارد حول حياة آلية تنبض عبثاً كضفدعة على طاولة تشريح. حياة، الألم فيها منتظم كالخفقان أو كدقات الثواني. كنت أشعر أنني في ثقب هو تقريباً النسيان، حيث لا مرادف لأي شيء، وحيث يخمد فجأة صراخنا الحيواني، قبل أن تبدأ فينا، في أجسادنا وأنفسنا مشاعر زجاجية. شيء من حجر وموت. تبدأ فينا طبيعة كقضبان النافذة والمصطبة الحجرية والتعداد الآلي لخطوات السجين المجاور.

لم أعترف، لماذا، لا أعرف لهذا سبباً واضحاً، هنا عرفت أن أيماني في قرارته لا يوازي أبداً زوجي فلق.

نقلونا إلى صيدا، جمعوا الموقوفين في زنزانات ضيقة تحت الأرض، التقيت هنا بشيوعيين من الحزب اعتقلوهم بعد أن وزّع الماويون منشورات بالاسم نفسه مضافاً إليه بين قوسين (الماركسي اللينيني). كانوا هادئين وأنا وحدي أجّر بينهم قدمين متورمتين، إلتقيت (خ) الذي أخبرني أنه اعترف. لم أفاجأ لكن الخبر مع ذلك هدّني. كنت أحتاج إلى هذه القشة لأفقد مقاومتي. أنا هكذا في العادة أصمد إلى حين. أستنفد إرادتي في وقت ويبدأ بعدها التدهور. أفكر أن هناك اقتصاداً للإرادة لا أعرفه. سألت (خ) إذا كان اعترف عن الجميع، لم يبق إلا أن أحول دون أن يفعل ذلك، ماذا لو أصر المحقق، قلت إني لن أنجو من اعتراف (خ) ولا فائدة في إنكاره. عند المحقق صدقت على أقواله، وخرجت متألماً، لو صمدت أكثر، ربما قليلاً، لاستطعت أن أنجح، ها أنا مجدداً تطيح بي لحظة خوف، لماذا أذن بقيت يومين تحت التعذيب، لماذا خسرت ثانية في الوقت الإضافي. لقد رميت بصمود يومين من النافذة، وبدأ كل شيء جبنا خالصاً. يبقى السؤال الأساسي هل أنا جبان؟

نقلونا إلى بيروت، وجدنا آخر أُوقف للسبب نفسه، لم يتعرض لضرب كبير. هو (م)

المعتاد على السجن. هو هذه المرة أيضاً في إحدى زوراته للزنزانة ولا يكترث. كنت هنا بجريرة المرة الأولى، ليس علينا إلا أن ننتظر، لقد أكملنا سعينا وعلينا أن ننتظر. أطل علينا (ج) قال إنه لا يجد نظارتيه السميكتين، قال إنهم اتهموه كذباً بأنه يوزع منشوراً، لم يوزعه لكنه وجده. كنت مدهوشاً هذا (ج) الذي أعرف جيداً أنه قائد التنظيم الماوي. قلت له من أنا ليترك لعبته، لكنه أصرّ.

وجد منشوراً ولم يوزعه. في الساحة ونحن نتمشى أخذني جانباً وقال لي أن أصمد «يا رفيق الصين انتصرت في عشرين عاماً، كوبا في سبع. أصمد يا رفيق» لم لا أحب كثيراً هذه العظة. تركته يتكلم. في المساء أخذوه. عاد كما عدت أنا من أيام كوم لحم، ورضوض، أبلغونا أنهم سينقلوننا إلى سجن مدني دخلت لأسأل الرفيق إن كان يكلفني بشيء، وجدته على المصطبة مكوّماً ولا كلام في فمه. سألته مرتين وأكثر فلم يجب. تركته وخرجت، في ما بعد لتمام النكتة قلت إنني أيضاً قرأت عليه «أصمد يا رفيق الصين انتصرت.. كوبا انتصرت في... أصمد يا رفيق».

في السجن المدني (الرمل) قضيت أسبوعاً بين مساجين عاديين، وزعونا على قاعات السجن الوسيعة التي تتسع الواحدة منها لسبعين سجيناً يفترشون أرضها في الليل متماسين متجاورين، استخفوا بتهمتي وتوقعوا أن لا يطول سجني، ارتفع الخطر، كنت الآن أتمتع بمشاعر عادية، أفكر في الغد وأحسب لليوم، لقد نجوت تقريباً، وها أنا أتمتع بالكسل العذب والحياة الخالية للناجين حديثاً، كانت هناك بالطبع مسألة السجن، لكن الوقت لا يزال أمامي للتفكير فيها، كنت لأيام خالي البال تقريباً، لكني في سري لا افتأ أردد: «لماذا لم أصمد، لماذا لم أصمد».